حقيقة التجربة الصوفية

للدكتور محمد على أبو ريان

أستاذ الفلسفة والتصوف بجامعة الاسكندرية

- ١ -

اذا كانت الفلسفة تطبق منهج الاستدلال العقلى لاستشفاف جوانب الحقيقة ، والعلم يستعمل المنهج التجريبى الذى يقوم أساسا على الادراك الحسى ، فان التصوف يستعمل أسلوبا فريدا آخر غايته استجلاء الحقيقة بكاملها عن طريق المنهج التجريبى ووسيلته الذوق أو الحدس الصوفى ، والممارسون لهذا الأسلوب المعرفى يستهدفون المشاهدة العيانية الذوقية للحقائق فى نبضاتها الحيـــة وتشخصها الروحانى الكامل وذلك خـــلال أرصادهم الروحية .

والتصوف يعد ــ فى الغالب ــ استبطانا للتجربة الدينية أو هو كمـــا سنرى فيما بعد ــ الوجه الروحى المشرق للدين والذى يقوم أساسا على تجاوز الرسوم الظاهرة فى علاقة العبد بالرب ، واحلال علاقة الحب والرجاء محل الخوف وطلب المثوبة ، واستجلاء صفات الجمـــال والبهاء والجلال ، والانغمار فى بحر النور والتعلق بمشارف العزة فى رحاب الحضرة الالهية حتى تحترق الذات من قبسات سبحات الحق . ومنذ اللحظة التى يتوكل فيها السالك السير على أن يبدأ الرحلة الى جناب الحق فهو قد امتاز عن كثرة الخلق وعامة المؤمنين الذين يقفون عند منطوق الفقهاء وظاهر الأمر والنهى ، فيولى المريد وجهه نحو « الشيخ » « صاحب الخرقة » ، ومؤتمن السر وحجة التعليم .

وقد تساءل كثير من العلماء والفلاسفة عن محك التجربة الصوفيـــة ؟ ما هو الأساس الذى تقوم عليـــه صحتها ؟ ان الفلاسفة يستعملون المنطق الذى يقوم على قوانين الفكر الاساسية ، والتجريبيون الحسيون يستندون الى شهادة الحس أى الى الواقع الخارجى المحسوس بينما الصوفية يمارسون تجارب روحية فريدة لا يمكن وصفها أو نقلهـــا للغير فما دليلهم على صحة هذه التجارب ؟ وللجواب على هذا التساؤل سنحاول أن نستعمل المنهج المقارن فاذا كان التصوف ظاهرة أثبتت وجودها لدى المؤمنين عند سائر الأديان سواء أكانت سماوية أم وثنية فهى دون شك ظاهرة انسانيـــة لا تتعلق بدين بعينه أو بشعب أو بجنس بعينه ، وبالتالى فان الاستقراء التاريخى لظاهرة التصوف يثبت انها لاحقة لظهور الدين متعلقة به ومتأخرة

عن فترة الصدر الاول لهذا الدين ، وهذا يعنى أن التصوف فى حقيقة أمره تعميق روحى للحياة الدينية وترجمة تجريبية عن مضامين المغيب الدينى أو الاسرار اللاهوتية . هذه هى المقدمة الاولى فى دليلنا على صحة التجربة الصوفية ، فوجودها عند كافة الشعوب والاجناس وارتباطهـــا بالدين فى فترة معينة كل هذا يقوم حجة لدحض دعاوى الخصوم والمبطلين .

ويتعين علينا بعد ذلك استكمالا لأسباب الرد واثبـــات هذا الأمر أن نتناول معطيات التجارب الروحية بالمقارنة ، فرغم اختلاف الصوفية فى التعبير الرمزى عن معطيات التجارب الروحية الا أننا نلاحظ أن ثمت توافقا بل تطابقا بينهم فى المنهج وفى الموضوعات التى يعالجونها بل ان أوصافهم لعالم القدس تكاد تتفق ، وكذلك فان السلم الصوفى يكاد يكون واحدا ، واذا كان ثمت اختـــلاف بينهم فى فهمهم لمعنى الفناء والمحـــو فانها أمور يستحيل استعمال الدقة فى التعبير عنها فشتان ما بين المشاهدة فى حالة الوجد وسكر الطبيعة وبين ما يعبر به عنها من لغة ابتدعت أصلا للاشـــارة الى المحسوسات وكما يقول ابن خلدون انه يستحيل أن نزن الذهب بميزان التراب وليس ثمت مقياس واحد ينطبق على موجودات عالمنا هذا والذوات التى تعمر المملكة الروحانية .

ومما تجدر الاشـــارة اليه أيضا أن نشاطنا العقلى يتـــأثر فى الغالب بتجاربنا الحسية وانه مهما بذلنا من جهد فى عمليات التجريد فان آثار الادراكات الحسية لا تنفك تلون أكثر معطياتنا العقلية ايغالا فى التجريد، وحتى اذا أفلحنا فى تعرية أفكارنا من ردائها الحسى الا اننا مضطرون الى أن نضع هذه الافكار فى صيغ لغوية لكى نتعامل بها مع الغير ، واللغـــة هى فى حقيقة الامر انعكاس اجتماعى لادراكنا الحسى فهى لا تتعدى التجربة الواقعية ، ولهذا فانها لا تصلح مطلقا للتعبير عن المجالات الروحية العالية ذلك لان التجربة الصوفية هى فى حقيقتها دعوة لتجاوز حدود التجربة الواقعية .

ومعنى هذا أن ما نلاحظه من اختلاف فى التعبير عن مضمون التجربة الصوفية عند أساطين الحياة الروحية لا يهدم دعوانا فى القول بوحـــدة « المضمون » و « الهدف » للتجربة الصوفية عند كافة « الواصلين » .

ومما يؤيد دعوانا هذه ما نجده فى كتابات الصوفية من جميع الاديان من اتفاق على بعض المبادىء الهامة .

فنحن نستشف من انتاجهم أن هناك شبه اجماع على أن ثمت صنفين من التجارب الصوفية ، صنف يكون محتوى التجربة فيه موضـــوعات روحية وصنف آخر يكون محتوى التجربة فيه ذاتيا محضا .

والنوع الاول من التجارب الصوفية يتناول انبات متيافيزيقية خالصـــة

الروحانية كالانوار القاهرة والملائكة عساكر الحضرة الالهيـــة وغيرها من الذوات الملكوتية مما يشاهده الربانيون عيانا فى عالم القدس وتعجـــز اللغة آنئذ عن مطاوعة حقيقة الرصد فيكتفى الصـــوفى بالرمز كناية عن عجزه عن النقل ٠

أما النوع الثانى من التجارب الصوفية أعنى تلك التجارب ذات الطبيعة الذاتية المحضة فهى تتضمن الشعور بالرفع التدريجى للحـدود وللصفات الشخصية المميزة للنفس حتى تنحسر عنها شواغل الحس وتنجاب عنهـا السمات التى تربطها بالواقع الملموس ، فتعود الى الانغمار فى بحر اللانهاية وبلغة التصوف الهندى تفنى فى النرفانا ، وبلغة التصوف الاسلامى يحصل بها ما يسمى بحالة « المحو » وهذه حالة من حالات الوجد السلبية ٠

ولكن هذين النوعين من التجربة الصوفية لا ينفصل أحدهما عن الآخر بل يكملان بعضهما بعضا ، فلن يستطيع الواصل أن يرصد وقائع العالم الروحانى الا بعد أن يكون قد استكمل عدته من مستلزمات الطريق أى بعد أن يكون قد اجتاز مراسم الرياضة الروحية التى تنصب على الذات وسيصل المريد فى النهاية الى هدفه بتفضل من جناب الحق حيث الثبات والديمومة والسكون المطلق وذلك بعد رفع سمات الانائية والهوية ٠

غير أن بعض مؤرخى التصوف يرون أن مشاهدة الذوات الروحانيـــة قد تعطل السير الحثيث للسالكين الى هدفهم الاسمى ، وذلك لان الواصل لا يستطيع ان يتخلف من شائبة الحس أثناء مشاهدته لها ولهذا فهم على ما يبدو يميزون بين هذين النوعين من التجربة الصوفية فالتجربةالشخصية البحتة قد تحمل السالك الى هدفه بسرعة أما التجربة الموضوعية فقـــد تعطل سيره الحثيث الى هذا الهدف ، ولكننا نرى بين هذين النوعين من التجارب الصوفية ترابطا واضحا لا انفصام له ، أما دعوى تدخل شوائب الحس أثناء الرصد الروحانى فهى دعوى لا دليل على صحتها فتلك حالة من حالات الوجد الفائقة للطبيعة التى لا يمكن مقارنتها بواقعنا الشعورىوالتى يستحيل أثناءها « الواصل » الى « انية روحية » لا تربطها بعالمنا هذا أية وشائج ملموسة ٠

هذه فكرة أولية عن وحدة المنهج فى التجربة الصوفية عند ســـائر المتصوفة وفيها ما يشجب أدلة النافين لحقيقة هذه الظاهرة الانسانية أى التصوف والتى تمثل أرفع مراتب السمو البشرى ٠ وسنتناول فى مقالنا القادم ان شاء الله موضوعات هذه التجربة الروحية الفريدة ٠

محمد على أبو ريان